المحاضرة السابعة

الحضارة الفارسيّة :

حضارة الفرس الاخمينيين : (335– 559 ق.م):

أسسها (كورش) ، و قوض صرحها الإسكندر المكدوني، و امتازت هذه الامبراطورية بتنظيم إدارة البلاد أيام داريوس ، الذي كان قائد الحرس الملكي (قائد عشرة الالاف الخالدين) ساعده الأيمن في العاصمة، أمّا الولايات فكان عليها حاكم (مرزبان) و بجانبه قائد عسكري ، و كاتب يرفع الاخبار للملك ، كما امتازت بمواصلاتها الجيدة ، حيث شبكة الطرق الطويلة التي ربطت أرجاء الإمبراطورية ، مع محطات للبريد، لتسهيل نقل الاخبار و الامراء و الجيوش.

و افتخر داريوس بأنه : أحبَّ الحق و لم يحب الخطأ، و كانت إدارته ألا يتعرضو لحقوق أرملة أو يتيم ، وأنه عاقب الكذاب و كافأ الصادق المجتهد .

فالقضاة المرتشون مثلا كانو يقتلون ، و لضمان نزاهة القضاء أمر قمبيز بأن يسلخ القاضي الظالم حيا ، و أن يستخدم و أن يستخدم هذا الجلد لصنع مقاعد القضاة ، ثم يعين ابن القاضي القتيل بدلا من ابيه.

و كانت الاحكام قاسية منها : الوسم بالنار، و بتر الأطراف أو تشويهها ، أو سمل العين ، أو السجن ..و يحل القتل عقابا على خيانة الوطن ، أو هتك العرض ، أو القتل ، أو الاعتداء على حرمة القصر الملكي .

و سلطة الامبراطور مطلقة ، لا يسأل عما يفعل ، فالمذنبون الذين تلهب السياط أجسادهم بأمره، يشكرون له تفضله بانه لم يغفل عن ذكرهم ، فقرارات الامبراطور هي القانون و احكامه لا ترد ، لأنها وحي الاله أهورا – مزدا اليه .

وسبب ضعف هذه الدولة عدم تقدم الصناعة و التجارة و العلوم ، لإعطائها دعامة اقتصادية و اجتماعية ، فقيام امبراطورية جهود عظيمة ، و الجهود الأعظم سبل الحفاظ عليها ، و الابتعاد عن

طرق الانحلال ، فهزائم الجيش الفارسي بقيادة دارا في الماراتون، مع أطماع الولاة و الثورات و الحروب المتكررة، و الجمود و الفساد ...كل ذلك سهل على الاسكندر انتصاره على دارا الثالث في معركة إيسوس.

الفرثيون و حضارتهم : (324–250 ق.م)

بقيت إيران تحت حكم السلوقيين خلفاء الاسكندر حتى عام 250 ق.م ، حيث بدأت فترة حكم الفرثيين الذين فترة حكم الفرثيين الذين قدمو من آسيا الوسطى ، و عرفت سلالتهم بالسلالة الأشكانية أو الأرشاقية ، نسبة الى أرشاق الأول مؤسس الدولة الفرثية ن التي كانت حضارتها مزيجا من فارسية–هلنستية حتى القرن الأول الميلادي، حيث ابتعدت عن الفكر الهلنستي ، و اتخذت المجوسية الزردشتية ديانة رسمية ، ووضع كتاب الأفستا كتاب المجوسية الديني.

الزّردشتيّة :

يعتقد الزردشتيون ان أم زردشت حملت به حملا الهيّاً ، دخل شعاع من أشعة العظمةالسماوية الى صدر فتاة راسخة في النسب،سامقة في الشرف، و تزوج الكاهن الفتاة،و امتزج الحبيسان الملاك و الشعاع ، فنشأ زردشت من هذا المزيج. و تجلى له (أهورا–مزدا) رب النور الاله الأعظم ، ووضع في يديه الابستاق (الافستا) أي كتاب العلم و الحكمة.

تقوم الزردشتية على أسس ثلاثة هي :

1 ان الزراعة و تربية المواشي، هما وحدهما المهنتان النبيلتان

2 ان الكون بأسره معركة بين الخير و الشر، و الفكرة السائدة ثنائية العالم الذي يقوم على مسرحه صراع يدوم اثني عشر الف عام بين الاله أهورا –مزدا ، و الشيطان أهريمان

3 إنّ العناصر ، و هي الهواء والماء و النار و التراب طاهرة و لا يجوز تدنيسها ، و النار المقدسة ، و سادن بيت النار يقوم على خدمة اللهب المقدس ، و الحياة المثلى كما رسمها النبي زردشت هي : حيث يشيد المؤمن بيتا فيه فيه الماشية ، و الزوج و الولد ، و حيث توهج النار.

و أفضل الفضائل : الطهر و الأمانة ، و يؤديان الى الحياة الخالدة.

حرية الإرادة عمل يقوم به الانسان يرجح قضية أهورا –مزدا (الخير) ، او قضية أهريمان (الشر).

التقوى أعظم الفضائل على الاطلاق، و التقوى(ان يعبد الله بالطهر و التضحية و الصلاة).

و معابد الزردشتيين أقيمت على قمم الجبال ، يوقدون النار فوق تكريما لأهورا–مزدا ، و عندما سيست الزردشتية ، صور الاله الأعظم في صورة ملك ضخم ذي جلال مهيب ، مع انها اقتربت من عقيدة التوحيد في ايامها الأولى ، و اتخذت النار نفسها الهاً ، و اعتقد الزردشتيون انها ابن اله النور ،لذلك حرصت الاسر الا تنطفا النار في بيوتها، و الشمس نار السماوات الخالدة، تعبد بوصفها أقصى ما يتمثل فيها أهورا–مزدا.

و يعتقد الزردشتيون ان نهاية العالم قريبة محتومة، فبعد موت زردشت بثلاثة آلاف سنة ،يحل يوم الحساب الأخير ، و تقوم مملكة اهورا–مزدا، و يهلك (أهرمان) هلاكا ابديا.

الساسانيون و حضارتهم: 224–652 م:

أسس حكم الاسرة الساسانية أردشير الأول ، الذي جعل الزردشتية المجوسية ديانة الدولة الرسمية .

و أيام كسرى أنوشران (الروح الخالدة)قامت إصلاحات هامة ، و شخصية أنوشروان جديرة بالدرس، فعند اعتلائه العرش وجد البلاد تعاني من الاضطراب و الفساد و الظلم و القوانين العقيمة، فعزم على علاج هذه الأوضاع.

و أعظم اصلاحاته تسوية مشكل الأرض الزراعية، فقد جرت العادة من قبل أنوشران ، على ان تحصل الدولة على نصيب يتفاوت بين العشر و النصف، من كل محصول حسب خصوبة الأرض ، وطبقت هذه القاعدة تطبيقا سيئا بسبب ما يرتكب جباة الخراج من الاجحاف، و لو تؤد هذه القاعدة الى تثبيط همم الزراع فحسب، بل أدت الى خسارة في المحصول، و كانت هذه الخسارة تحدث لان المزارعين لم يكن يسمح لهم بجني حاصلاتهم الزراعية، حتى يحضر جباة الضرائب ، للحصول على

حصة الملك، فكان ترك المحصول على الأشجار على الرغم من نضجه، يؤدي الى تلف قسم كبير منه.

و المثل على ذلك ، ماجاء في قصة جارية تقول : ان انوشران رأى ولدا تضربه امه لانه التقط عنقودا من العنب، و قد اختطفته الام من يد ابنها و علقته بالكرمة، فلما سألها انوشران عما تفعل ، اجابت بان ليس من حق الحراثين ان يأكلو من عنبهم قبل ان يجمع نصيب كسرى منه ، فاستبدل انوشران بتلك القاعدة مبالغ نقدية أو عينية محددة لكل قطعة من الأرض المزروعة، و علاوة على هذا فقد وضع خراجا على أشجار الفاكهة، و البيوت، و جزية على الرؤوس ، و شجع الحراثين بكل الوسائل ليفلحو المزيد من الأراضي، و عمل دائما على زيادة مياه الري، فأنشأ السدود و القنوات ، كما قدم البذور و الماشية للحراثين و عمل على زيادة عدد السكان فحتم الزواج على كل رجل، و منح الفقراء المهور، وأصلح وسائل المواصلات ، فشيد الجسور و شدق الطرق ، و ضرب بيد من حديد على قطاعها، و بذل قصارى جهده لمنع اعمال العدوان و الظلم ، و مثال على ذلك : سأل احد السفراء عن سر اعوجاج الميدان المقابل لقصر كسرى ، فأجيب بان عجوزا تملك الأرض الملاصقة ، و قد رفضت بيعها بأي ثمن ، و لم يشأ انوشروان أن يجبرها على البيع ،كما شغف هذا الملك بالعلم كثيراً فأنشأ مدرسة جنديسابور المشهورة ، حيث كان يدرس فيها الطب و الفلسفة بتوسع.

ظهرت أيام الأسرة الساسانية المانوية ، وماني (215-274م)، اعلن دعوته في سن مبكرة، زار الهند و التيبت و تركستان، و الصين ، ثم عاد إلى فارس بعد وفاة سابور الأول ، حيث رحب به خليفته هرمزد الذي حكم إيران سنة واحدة، و حين ولي العرش بهرام الأول ، قتل ماني ،وسخ جلده، ثم حشاه تبناً و علقه على باب المدينة.

قال ماني : ان كل ما في العالم من شر ، فهو شر، ولذلك فانه دعا الى عدم الزواج و عدم زيادة النسل ، و ماني يقول بمقالة الزردشتية: ان النور يحارب الظلمة، و شكل ثالوثا يدافع مع اله النور اله الظلام ، و لكنه يقول : ان كليهما كان شرا، و يقول ان نارا ستوقد في النهاية ، وتؤدي الى خلاص النور و انفصاله النهائي عن الظلمة التي لا خلاص لها.

و مما يذكر اننا اذا علمنا ان خلود الروح معناه وجود في المستقبل لا ينتهي ، فان المعتقد الإيراني قد تجاوز هذا الحد ، فنص في تعاليمه على ان لكل انسان روحا ، و ان هذه الروح وجدت في ماض لاحد له ، و انها تلازمه في الحياة الدنيا ، و تنتقل معه عند موته الى الأبدية في العالم الاخر ، العالم الذي تسكنه أرواح من قضى من الصالحين، و تفيء الخير على أعقابهم الذين تقربوا اليهم بالصلاة و القرابين ، و على ذلك فإن ديانة توجه سلوك الفرد في كل عمل يأتيه في حياته ، و لم تكن ديانة شعائر لا يراعي المؤمن أحكامها الا حين تقام العبادات العامة.

و جوهر هذا الدين ، اذا ما قورن بديانات رومة و بلاد اليونان ، يتجلى في رمزيته ، فكانت رموز الالوهية عند الاغريق و الرومان آلهة تنحت او تصور على هيئة انسان ، صحيح ان النحات الفارسي قد حاول ان يمثل شخصية أهورا–مزدا على بعض الآثار الفارسية التي بقيت ، الا ان النار كانت هي الرمز الحق الذي يدل على الالوهية ، فالنار منبع الحرارة هي التي تطهر النفوس ، و النار مصدر النور ، فهي من ثم رمز الحقيقة ، و كانت الحقيقة و الطهر من أخص صفات الاله اهورا – مزدا ، و لم يكن الإيرانيون يعدونه عرضة لنقائض البشر التي عزتها الأساطير و الملاحم الاغريقية الى الهة الاغريق.

و لما كانت الدولة الساسانية قد سيطرت عل طريق التجارة مع الصين ، و اعادت بناء القرى ، و حفر الأقنية و الترع ، و أعطت الفقراء أرضا و بذارا و مواشي ، و قسمت الإمبراطورية الى أربعة أقسام إدارية ، و مسحت أراضي الدولة ، الا انها ارهقت شعبها بالضرائب ، و أدت حال الناس السيئة الى حركة ثورية مرتبطة ببدعة دينية تسمى المزدكية ، و هي بعثت للمجوسية متأثرة بفكر هلنستية، غايتها شيوعية الأرض و المواشي و النساء ، فقام الفلاحون و استولو على الأراضي و النساء، و جعلو القرى مشتركة .

بدأ الإصلاح الاجتماعي أيام قباذ الأول ، باستئصال الشرور التي سببت المزدكية، فمسح الأراضي و حدد كمية الضرائب ، و سمح الأراضي و حدد كمية الضرائب و سمح للفلاح بتعيين نوع المحصول ، لكن وضعت ضريبة شخصية على جميع الذكور بين سن العشرين و الخمسين ، اعفي منها الجند و النبلاء و الكهنة و الموظفون و المصابون بعاهات ، و عاد نظام الطبقات .

و لا يفوتنا و نحن نطوي اخر الكلمات عن الحضارة الإيرانية ان نقول :

و يمكن تمييز "الايوان" في مباني هذه الحضارة ، الذي أثار الاعجاب صياغة و دقة ، و الذي سيصبح له شأن في الأبنية الإيرانية المتأخرة .

و أن مركز المرأة كان حسنا نسبيا أيام الساسانيين ، فلقد كان لها نصيب اوفى من الحياة .